الدكتور الزين عباس عمارة

نقوش على البحر

دار الثقافة - بيروت

الطبعة الأولى ١٩٧٨

الأهـــداء

الى ابني ناظـــم

وهو يتعلم ..
رياضة التجديف في الرمل بلا تعب
وفن النقش في البحر بلا غضب

(أصداء ... من الداخل)

عصرنا هذا جريح كبرياء .. وجرح الكبرياء ضعف النفس التي صنعت بيديها قصور متعتها ، فوجدت فيها زنزانة عزلتها ، فقارنت بين قيمة الجهد المبذول والعطاء غير المعقول من حصيلة المتعة التى نتشوق اليها كأعلى نجم ترصده عدسة العين . وفاضت أهواء النفس موجات عاتية تضرب صخور الشط كسياط الجلادين ، وأصبحت فرصة النجاة اضعف من خيط العنكبوت وفرصة الموت اقرب من حبل الوريد ، ومع ذلك تندفع النفس الامارة بالسؤ الى قاع اليم تبحث عن المجهول .

جراحات عصرنا متجددة واسبابها متعددة . والمؤلم اننا تجاوزنا مرحلة الاعتراف بجراحاتنا النازفة ، وجلسنا تحت ظل شجرة عجوز تمد ظلالها مثل ثقوب شبكة الصياد . وبدأنا

حوارنا تحت الشمس ، والنزيف يقتل ضحيتنا ولا نعرف من أين ينزف ؟ وهل يهم من أين ينزف اذا كان شلال الدم الهادر يمثل خيطاً رفيعاً بين الموت والحياة علينا ان ننقذ المريض ثم نبدأ الحوار حول اسباب النزيف وقد يكون النقاش اكاديمياً او فلسفياً او عقائدياً او حكمة عامة مثل « درهم وقاية خير من قنطار علاج » .

ذكرت هذا المثال العام كنموذج خاص للممارسات الخاطئة التي تثبت يقيننا بأن هذا العصر جريح كبرياء .. وهي أخطر الجراحات .. فالكبرياء ليس عضواً فسيولوجياً يخضع للدراسة والتحليل ولكنه مجموعة قيم إنسانية قد تخضع للاجتهاد والتأويل والاجتهاد الشخصي قد ينتهي الى مغالطة او احباط فكري .. وهذه مصيدة .. فليست هناك مقاييس ثابتة او وحدة قياس معينة لتحديد درجة حرارة الكبرياء أو تقدير قوة أو ضعف الكبرياء الخ ..

والأهواء مجموعة غرائز بشرية تخضع لمؤثرات خارجية وتطلعات فردية .. ولا ينطبق عليها القياس والتقييم رغم

ينعمون بالفرح الاسطوري في مولد كل طفل وطبع كل ديوان .. وليلة كل رحيل الى منزل جديد . ونحن هنا لا نحتفل حتى بميلاد طفل جديد لانه لا يحمل بطاقة الانتساب للارض التي يجب أن يحجز فيها موقع مقبرته .

وعندما كنت في بلادي كان الاصدقاء يكتبون المقدمة .. وهي في النهاية بطاقة تزكية للديوان للدخول الى مكتبة القارىء ، وعندما اصبح القارىء يقيس الجهد بمعيار الذهب ، اسقطت من حسابي رغبة الاصدقاء في كتابة المقدمات .

وفرضت ظروف الدراسة ان أغيب عن الساحة الادبية لفترة طويلة ، طبعت فيها ديواني الأخير « قصائد من بريطانيا » وكتبت مقدمته من موقع الالتزام بأن اجيب من اجل الضرورة الوثائقية على الاسئلة التي طرحت في غيابي وحالت ظروف الاغتراب دون ان اشترك فيها ولم تكن المقدمة عن الديوان ، ولكنها مشاركة بأثر رجعي في النشاط الأدبي الذي فاتني ، ومثل كل مسافر في بلادي يركب الطائرة لاول مرة .. لا بد أن يفكر في الموت ولا بد ان يفكر في كتابة وصيته

لاسرته ، يقول فيها ما يريد ، ويقول ما لا يقال ظنا منه ان اللقاء لن يتجدد .

وبما ان التجمعات الادبية جزء من اسرتي فقد كتبت لهم ، وحز في نفسي ، ان جاء الديوان ليجد اكثر من عاصرتهم وأفضل من عاشرتهم اما عاجلتهم المنية بلا ميعاد أو ادركهم المرض بلا مقدمات أو اقعدتهم الشيخوخة من فرط المعاناة .. والقلة الباقية تعيش في مساكن اعلى من حاجب العين ، وخارج دائرة الاصوات التي تأتي من تحت .

وهذه حقيقة جديدة .. ان تحاول ربط جذورك القديمة العطشى في صحراء بلادك القديمة .. بالعشب المخضوضر النضر الذي وشح الساحات الجديدة في قلب المدينة .. حقيقة تقويم الفعل القائم ببقية الارادة المتصدعة .. صراع آخر في ضلوع عصرنا الجريح .

إن عصرنا .. عصر الضمير الغائب في اجازة مرضية طويلة .. عذر شرعي .. بنص القانون .. واذا كان التحايل

على القانون ممكناً في ظل السلطة فان الافلات من قبضته حتميا في غياب الضمير .. وغياب الضمير لم يكن اختياراً صميمياً ، بل كان هروباً لا شعورياً من مرارة واقع فرضته ظروف خارجة عن ارادة الفرد .. لقد أثرت هذه العوامل في طبغرافية وجودنا الحياتي .. فتغيرت خريطة العالم جغرافياً ومحتواه سياسياً .. وتركيبه اجتماعياً .. فانقلب الشكل الهرمي الذي قام عليه مجتمعنا المعاصر بزلزال داخلي عنيف .. وكان جيلنا ضحية هذا الزلزال المدمر .

خرج جيلنا من نيران الحرب الساخنة الى صقيع الحرب الباردة .. فتجمدت اعصابه وفقد القدرة على الحركة في اتجاهاته المرسومة واصيب بروماتيزم التكنولوجيا فاصبح كالانسان الآلي يتحرك باشارات لاسلكية بعيدة المدى في دائرة محدودة . هذا الجيل المتحرك في الكراسي الآلية كان يريد ان يقفز ليتخطى مرحلة الجمود في الحرب الباردة فأكثر من مرة سقط على وجهه ، ونظر في المرآة ورأى تضاريس جديدة في خريطة وجهه القديم وفكره القديم فقال : لمن تقرع الاجراس .. ؟

ومعظم الادباء الذين حملوا عبء تكسير جليد الجمود وامتصاص الصخب العشوائي الذي هز جدران صالة الاستماع الى قضايا الساعة : هذا الجيل كان في ميزان زمانه نبتاً شيطانياً في البورصة الادبية .. خرج من بيوت فقيرة ، بلا ارقام ومن الشوارع الخلفية ، ولكنه كتب اروع اعماله في ضوء المصابيح الشعبية ودموع الشموع الرخيصة ومن حسن حظهم ان كانت ثقوب بيوتهم القديمة اكثر من مكبرات الصوت الحديثة فكانت اصواتهم مسموعة في كل المجالات وكتبهم موضوعة في ارقى المكتبات وقراؤهم أكثر نشاطاً من خلية النحل .

وكان طبيعياً أن يتكسر جليد الحرب الباردة في تفجيرات حروب صغيرة شبت في كل بقاع العالم .. حروب لا ترقى الى حرب كبرى تحمل في احضانها تابوت العالم ولكنها انفجارات متفرقة تعبر عن أزمة الاختناق الفكري والتضخم البشري وكان العالم يحتاج الى هزة ارضية تعيد توازنه .. فانتشر العنف .. عنف من نوع جديد .. تسيل فيه الدماء بطريقة انسانية وبدبلوماسية لا تكشر عن انيابها وانما تقتل بمسدسات

صامتة صغيرة في حجم ولاعة السجائر .

والانسان بطبيعته عدواني .. وما دامت حضارة القرن العشرين لا تقبل العدوان المباشر ، فاصبح العدوان التحولي المتنفس الوحيد لسيكلوجية الصراع .. بين البيض والسود .. العزل والمسلحين .. الافليات المضطهدة .. وجيوش القمع ، وحوادث احتجاز رهائن بشرية كصرخة احتجاج أو اختطاف مركبة عامة أو خاصة من أجل المساومة على حقوق ، واتجه العالم الى افلام الرعب والعنف بتحويل الشاشة البيضاء الى قطعة حمراء من دم المصارعة والملاكمة ورياضات (العنف القانوني) .. فكان جيلاً بدون ارادة ، جيل التضحية .. الجيل الذي مشت على جسده سنابك خيول المطاردة في ارض الذهب .. واختفى صراع الأيديولوجيات والمنابر .. وبدأ صراع المصالح والمحاور .. ففقد الجيل روح القضية التي نادى بها .. وسقط من تحته المسرح الذي وقف عليه سنوات يبشر ويعظ الخ .

فأصبح هذا الجيل .. كالجندي الذي فقد بندقيته في

معركة يصرخ بأعلى صوته لأفراد كتيبته وهم لا يسمعون من فرط الصخب .. واذا اراد ان يتحدث ويكتب يشعر انه يحتاج لأن يضغط كالزناد كل حروف الابجدية في كلمة واحدة في سطر واحد .. ليقول ما يريد ..وهل كل ما يعرف يقال ؟ وهذه حقيقة جديدة .. ان الذي يحاول جمع اجزاء صورة ممزقة من جريدة قديمة ليضعها في اطارها الصحيح قطعاً لن يستعيد روعة الاصل .

كالذي يحاول ان يجمع حبات الزئبق في ورقة بيضاء او ينقش كلماته فوق سطح البحر وعلى رأس الموج .

وعندما شعرت بأنني قد وصلت مرحلة من العمر قد لا تتاح لي فيها ان اكتب ما اريد .. لا عن حياتي بفقاعات نجاحها او بالونات فشلها ـ فهذه مهمة يتحفز لها آخرون ولهم رصيد من الوثائق الخطية ـ ولكن لاكتب عن تجربة مناطحة الصخر وقرن الوعل .. اسطورة العجز الدائم بين التجربة المتمثلة والتجربة المعاشة .. فتركت المهمة لأطفالي .. واهديت لكل منهم ديوانا في حجم مسؤوليته وتطلعاتي فيه وتركت لهم

فراغاً يستبطنون فيه جذور معاناتي فقد يدفعهم التحدي غير المباشر الى اكمال ما عجزت عنه في كل اتجاه .. ويسدون ثغرة قد يكون حجمها اكبر من رؤيتي لها من خلال زاويتي الخاصة ..

أرجو الا يتطرق لذهن القارىء انني اكتب في لحظة انفعال طارىء .. فكثيراً ما يقفز النقاد الى هذه النتائج بلا مقدمات .. انني تجاوزت لحظة الانفجار .. وحرية الاختيار بلا منظار اسود يزيد كثافة لون السماء التي اشهد فيها مغيب الشمس وامامنا أميال قبل ان تصل المسيرة في ضوء النهار .. كما آمل الا يتوهم القارىء انني اقرع طبولي في غابة الادب لأخيف الطيور المغردة في اعلى غضون الدوحة فانني اخاف من الزواحف الناعمة اكثر من الطيور الهاجمة .

ولكنني عاشق للشعر .. عاشق حتى النخاع .. ولو سألتني ماذا تريد ان تكون ؟ .. لاجبتك على الفور « شاعر » .. لأن الشعر رسالة .. وافضل الشعراء كانوا اصحاب رسالات .. واكثر اصحاب الرسالات كانوا حملة

مشاعل في ظلام العصر . فأنا لست نادماً على مهنه الطب فقد اصبت فيها من رصيد النجاح اضعاف ما قدرت لها في حساب الخسارة ولا أرى تناقضاً بين الأثنين ولكن مهنتي لا تترك لي فراغاً اتعلم فيه صنعة الشعر .. فالشعر ثلثه موهبة وثلثاه صنعة .. كالنحت بالازميل والغوص في البحور والحذق في الطلاء الخ اسرار احتراف المهنة .. وشتان بين الهواية والاحتراف .

فأنا اسرق الوقت لأكتب .. وكنت آمل ان يسرقني الوقت وأنا اكتب متفرغاً لصناعة الشعر .. وامنيتي اليوم ان يخرج من بيتي شاعر ينفض الغبار عن ربابتي القديمة .. فقد اجهدت نفسي في أن أؤمن لهم الاستقرار الذي افتقدته ، وتركت لهم حرية الاختيار بين الهواية والاحتراف حتى لا تعصف بهم رياح الحاجة التي قذفت بي من المحيط الى الخليج .. فقد فتحت الطريق بقطرة موهبة وحفنة ثقافة واطنان اصرار .. وبعض ادوات الصنعة كالمطرقة والسندان معلقتين على حائط دكان الاسكافي . ومشيت ولكن بدأت الرمال تتحرك .. ومن

أمراض العصر ان الأشياء الثابتة تتحرك .. والأشياء المتحركة تقف ولذلك تصلبت شرايين الحياة وهرمت وشاخت ومن سيكلوجية الشيخوخة الحذر القاتل والخوف من الناس وكراهية الموت وحب النفس والاثرة والغيرة وانتفاخ الاوجاع القديمة .. اليست كل هذه اوجاع عصرنا الحديث ؟

وحتى لا يرى القارىء تناقضاً فيما قلت وما فعلت حين يطالع في هذا الديوان قصيدة « بطاقة شكر » لصاحب السمو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان رئيس دولة الامارات العربية المتحدة فانني قد اثبتها بقصد مسبق للضرورة الوثائقية لأنها جزء من التاريخ ...

وعلى الذين يكتبون التاريخ ان يسجلوا انني أؤمن بكل حرف فيها وكل شطر منها وقد جاءت مخاض الاجتماع المشهور للجالية السودانية بالسفارة بأبو ظبي لاعلان التبرع السخي من سموه بقطعة أرض مساحتها ٤٥٠٠ متر مربع لاقامة نادي اجتماعي ثقافي سوداني في ارض يباع فيها القدم الواحد بآلاف الدراهم .

وكعادتي سباقاً لمناصبة العداء للثام وتوّاقاً لمبادرة الوفاء للكرام وبلا وصاية من احد كتبت القصيدة.

وفي اليوم التالي اتصلت كعادتي بصديقي القنصل بالسفارة ابلغه الخبر وصادف ان كانت اللجنة التمهيدية منعقدة في تلك اللحظة فطلب مني الحضور فوراً لمقابلة اللجنة وبشهادتهم جميعاً فقد اعتذرت عن الحضور ورفضت اللقاء ايماناً مني بأن احساسي كان فردياً للغاية وقد لا يكون جماعياً بالضرورة وبعد الحاح منه قرأت له بعض ابيات القصيدة بالهاتف فطلب مني باسم اللجنة ان اترك لها حق التصرف فيها وظلت ما يقارب العام مطوية تنتظر رأي اللجنة حتى جاء رئيس وزراء السودان في زيارة رسمية للدولة ومن ضمن المناشط قام بوضع الحجر الأساسي للنادي فتولت اللجنة تكاليف طبعها في كتيب يحمل كلمة شكر، ووزعت على الحاضرين باسم الجالية السودانية وكان هذا اقل ما يمكن ان يقدم من الذين عاشوا تلك التجربة.

اقول هذا لا دفاعاً عن جرم ارتكبته ولا طمعاً في جاه

افتقدته ولكن اثباتاً لحقائق قد لا يعرفها الكثيرون ممن يعرفونني بالذات او يلتقون بي مع حروف الكلمات وحتى تكون الرؤيا اكثر وضوحاً فقد كتبت القصيدة في لوحة تذكارية ضخمة قدمتها هدية لسفارة السودان في ابو ظبي بحضور اعضاء السفارة ورئيس البعثة العسكرية السودانية ولقطات مصورة ، وكان هذا في نظري اكبر تقدير لي لا يقدر بثمن .. وما زالت اللوحة معلقة في السفارة وعندما يصل هذا الديوان الى يد القارىء قد تكون الحقائق ملموسة بالاصابع ومقروءة بالعيون ولكنني اردت ان أطمئن المشفقين من الاصدقاء والمتشككين من الأبرياء انني ما زلت اعتبر الشعر رسالة .. وترياق من أمراض الارتزاق . وانني عندما ارفض بيع شعري داخل وطني قطعاً لن اقبله في الخارج .. فلم تقبض يدي فلساً وما ورد في ذهني درهم .

ومن اصالة السودانيين رد الجميل بأي صورة مشرفة وعندما يصبح الانسان عاجزاً فاضعف الايمان الشكر باللسان .. وهذا ما فعلته ولست نادماً عليه .. وقناعتي الابدية

أن قلمي ما زال مصدر إشعاع فكري وعندما يصبح بؤرة عاري فسأجعله سكيناً اغرزه في صدري : اليس هذا جرح كبرياء ان تجد نفسك تدفع ثمن الالتزام لما لم تقبضه وتدافع من موقع الالزام لما قد ترفضه .. وهل من المعقول أصدق من أن اقول في قصيدتي تلك

يا أكرم الخلق ليست من طبيعتنا
مدح الرجال لهم زورا وبهتاناً
ولا نصفق الا من جوانحنا
حتى تفيض شغاف القلب اشجانا
ولا ندق طبول النصر في فرح
نخفي به طمعاً أو نبتغي شأنا
وما سعينا له جشعا وفي وطني
مليون ميل تقاسمناها أوطانا
لكن مروءة اهل الفضل تدفعنا
دفعا لنسجد للتكريم احسانا

أليست كل هذه الصفات مجتمعة حصيلة وزاد كل مغترب سوداني يرى في كل مرآه عيون وطنه ترصد خطاه ووجوه اهله تراقب مسعاه مما جعله في ندرة الذهب .. وجعل جرح كبريائه اعمق من فوهة براكين الغضب .

لقد قاومت رغبتي في الكتابة وكتمت صوتي من الصياح وما تقرأونه هو أصداء .. ما يدور بالداخل .. اصداءالصراع الذي رفع لافتة تغطي الوجه تحمل تشخيص مرض العصر .. عصرنا الذي قتل واحرق ودمر واخيرا أراق ماء وجهه من اجل ان يمتلك المال فامتلكه المال .. ولا يزال يرفض الاعتراف بهذه الحقيقة .

وهذه بعض جراحات كبرياء عصرنا الحديث ..وكفى !

أبو ظبي/ أيلول ٩٧٧